د. يـوسف قـــاسمي

الحضور الشعبي خلال الثـورة الجزائريـة... السيـــاق التـاريخـي والـــدلالات

اتسمت الفترة التاريخية من حقبة الخمسينيات من القرن الماضي على المستوى الدولي بالتوتر والصراع بين الأقطاب الدولية؛ ممثلة في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من جهة، والاتحاد السوفيتي وأتباعه من الجهة المعاكسة؛ وذلك من أجل السيطرة على العالم.

وقد وجدت بعض الدول حديثة العهد بالاستقلال نفسها أمام خيارين أحلاهما مر. كما يقال .: إما الانضواء تحت لواء الكتلة الغربية وتبني أطروحات منظومتها الإيديولوجية والسياسية، آو الانتساب إلى المعسكر الشيوعي والعزف على وتر فلسفته الشمولية العالمية. لكن بعض الدول المستقلة المذكورة فضلت التموقع خارج الخيارين سياسيا، مع التفاعل الموضوعي . وأحيانا المقصود . مع ما يجري من أحداث وتنافس بين المعسكرين؛ في إطار ما عرف . آنذاك . بسياسة "**عدم الانحياز**" أو "**الحياد الايجابي**." ولعل من ابرز هذه الدول: الهند، مصر، اندونيسيا، ويوغسلافيا..

وقد ركزت في خطابها ونشاطها السياسي والدبلوماسي على أولويات أخرى، من بينها: مسألة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالداخل، وقضايا التحرر، ومكافحة الاستعمار وبقاياه.. الخ، على المستوى الخارجي. وكانت هذه الموجة التحررية في كامل عنفوانها وقمة نشاطها.

ونعتقد أن الدولة الفرنسية ونظامها الاستعماري في بلادنا يومها، تعد من الأطراف القلائل الذين لم يدركوا حجم تلك التغيرات التي كانت تهز البلاد ومجمل القارة الإفريقية، ومن ثم لم يقرؤوا ذلك الزخم الثوري القراءة الموضوعية، كما لم يقيموا مستوى التفاعل الجماهيري مع الرغبة الطموحة والمشروعة للإنعتاق والاستقلال. ويفسر ذلك ربما بأسباب سياسية داخلية تتعلق بترتيبات البيت السياسي الفرنسي، أو نتيجة لشكوك ومخاوف دولية تتعلق بعدم الثقة في حلفائها الأمريكان، وبالطبع في الخصم الإيديولوجي السوفيتي !.. من أن يحلا محلها في المناطق التي قد تخرج منها بتسوية آو بغيرها.هذا على الرغم من الهزيمة العسكرية والدبلوماسية المدوية التي لحقت بها من طرف مقاومي وثوار جبهة تحرير الفيتنام بزعامة "هوشي منه" في ديان بيان فو شهر ماي 1954م. كانت كفيلة بإقناعها بضرورة الانتباه إلى حجم التيار الشعبي الثوري المتنامي ضد وجودها الاستعماري في أكثر من بلد؛ ولعل على رأس هذه البلدان الجزائر طبعا.

وعليه فقد شكلت تلك الهواجس المتنامية لدى الطرف الفرنسي، وإهماله المقصود للمطالب العادلة للجزائريين؛ والادعاء على لسان الساسة الفرنسيين وصحافتها بأن الوضع " **هادئ**" بالجزائر... كلها تفاعلات شكلت إحدى العوامل والشروط السياسية والموضوعية المناسبة للإسراع بالخطو باتجاه تبني الفعل الثوري المباشر، وإعلان انفجار نوفمبر العظيم 54م؛ باستغلال نقلة الوعي والنضج الشعبي الذي بلغ عتبة الرفض للمستعمر في تلك المرحلة. وعليه فقد كان الاعتماد و الانطلاق من هذا الزخم الكبير واستغلال كفرصة للتعبير عن " **الراديكالية الشعبية**" في شكل ثورة عارمة وطنية.

وقد كان الشعب الجزائري في الموعد فعلا، من خلال احتضانه للثورة المعلنة عبر تقديم مختلف أشكال الدعم البشري والمادي بعد انطلاقتها الأولى، ثم بالمساندة لها ولممثليها وزعمائها في مواجهة الحملات القمعية البربرية للجيش الفرنسي؛ تلك الحملات الهادفة إلى القضاء على جيش التحرير الوطن. وكذلك تسجيل الحضور الجماهير في مناسبات عديدة، لأجل إبطال مفعول مشاريع ومخططات الاحتواء والتسوية المشبوهة والمغرضة المطروحة من قبل إدارة العدو وحلفائه، تتعلق بتسوية قضيتنا الوطنية الثورية؛ حيث كان حكام فرنسا العسكريين بالجزائر، أو ساستها هناك بفرنسا المترو بول يتنافسون في التعبير عنها والترويج لها كوصفات سحرية لحل المشكل الجزائري. وتعد الهبات الشعبية الوطنية التي ظهرت في صورة انتفاضات شعبية، أو إضرابات عامة، أو مظاهرات واحتجاجات... بمثابة صور وأشكال التعبير والمساندة والتبني بل التزكية الشعبية لمشروع الثورة وخياراتها الوطنية الاستقلالية.

في هذه الورقة العلمية عرض لمجمل السياق التاريخي لمثل هذه التحركات الجماهيرية إبان الثورة التحريرية، وتحليل لأبعادها وتأثيراتها على مسيرة ومسار الثورة العام سياسيا ودبلوماسيا. مع استخلاص مركز لأهم المعاني والدلالات التي تحملها. معتمدين منهج التحليل التاريخي لأهم الأحداث ذات الصلة بالموضوع،

وقراءة لمفعول تداعيات الأحداث على مستقبل الثورة والعدو معا. معتمدين على مصادر ومراجع تاريخية، وتصريحات وشهادات لصانعي الحدث الثوري من القادة والزعماء. وقد تناولنا الموضوع وفق خطة العمل التالية:

1. الجماهير الشعبية ودورها في حركات التغيير الثورية
2. السياق التاريخي ونماذج عن المساهمة الشعبية في الثورة.
3. عودة الجنرال ديغول لتسلم الحكم... ومعالم سياسته تجاه الثورة.
4. مظاهرات 11 ديسمبر 1960م و 17 أكتوبر 1961م... نموذجا.
5. أهم الدلالات المستخلصة...

وأخيرا خاتمة نحوصل فيها مجمل نظرتنا للموضوع وآفاقه كما نتطلع إليه.

نأمل بعد ذلك أن نتمكن من المساهمة في كشف الوجه الآخر لدور الجماهير الشعبية وفئاتها غير المجندة عسكريا في الثورة التحريرية، ثم بيان أهمية المكاسب المحققة للجبهة والثورة معا؛ ومن خلالهما لصالح الحكومة المؤقتة الجزائرية وزعمائها. خاصة في فترة حساسة كانوا يهمون فيها لخوض المعركة الأخيرة الفاصلة مع العدو الفرنسي بقيادة الجنرال ديغول، ومجابهة مشاريعه الاستسلامية المناورة والغادرة... تلكم هي "**معركة المفاوضات**" الشاقة لتقرير مصير الشعب الجزائري ووطنه المحتل منذ قرن وثلث القرن تقريبا.

1 . الجماهير الشعبية ودورها في حركات التغيير الثورية

يقول الزعيم الوطني الجزائري "**مصالي الحاج**" بشأن دور الجماهير في صناعة التغيير الثوري والاجتماعي، وموقعها الحساس بين باقي الفئات الاجتماعية الأخرى: " **ليس ثمة شيء يمكن أن يحل محل الجماهير المنظمة في فرض مشكلة ما على الصعيد ين الداخلي و الخارجي، و لا يمكن للكفاءة أو القيمة الفكرية، أو المكانة الاجتماعية، أو لقب الإمارة، أو الفصاحة أو المؤهل العلمي أن تحل محل عمل الجماهير**."(1)

في الاتجاه نفسه يؤكد الطبيب المارتينيكي وصديق الثورة الجزائرية ومناضلها الثوري" **فرانز فانون**" بأن الثورات التحررية هي في النهاية صنيعة الشعوب آو بتأثير مباشر منها؛ فيقول: "**إن انبثاق الأمة الجديدة، وتدمير النظم الاستعمارية هما إما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمر، وإما ثمرة العنف الذي تقوم به شعوب أخرى مستعمرة فيضغط على النظام الاستعماري**."(2)

أما المفكر وفيلسوف الحضارة الجزائري مالك بن نبي فينظر إلى الثورة على أنها من صنع الجماهير الشعبية وليست من صنع طبقة خاصة، أو نخبة بعينها. والفلاح الجزائري هو الذي حمل عبئها قبل العالم والمهتم بالشؤون العقلية؛ وبذلك نراه يتوافق في هذه القضية مع الزعيم مصالي الحاج. فيؤكد أن: "" **الشعب الجزائري هو الذي صنع الثورة، وكان الفلاح هو الذي حمل عبئها قبل العامل، والمهتم بالشؤون**

العقلية؛ فقد كانت الثورة في الواقع ثورة فلاحين، لا بمجرد عدد شهدائها فحسب، ولكن بروحها كذلك." (3)

من خلال هذه المقولات لزعماء سياسيين ومفكرين بل منظرين ثوريين واجتماعيين؛ الذين أجمعوا على محورية ومركزية الدور الشعبي في أية عملية ثورية.. يتبين لنا سعة المساحة وأهمتها وكذا الدور البارز الذي يمكن أن تلعبه الجماهير الشعبية بكامل فئاتها الطبقية في العمليات التغييرية. وقد انتبه إلى مقدار هذا الدور الحساس بعضا من قادة الثورة، المفجرين لها عشية اندلاعها، وتحديدا في اجتماع 22 التاريخي؛ إنه الشهيد العربي بن مهيدي . رحمه الله . حيث يذكر زملائه بهذه الحقيقة، ويعزز من حظوظ خيار الذهاب إلى الثورة المسلحة في مناقشاتهم؛ بالتأكيد على أن الشعب الجزائري كله ناضجا ثوريا، ومستعدا تمام الاستعداد لاحتضان الثورة. يقول: " **إن الشعب مثل عصف يابس لا ينتظر منا إلا إلقاء عود الثقاب ليشتعل ... أعلنوا** الثورة و ألقوا بها في الشارع فسوف يتبناها عشرة ملايين جزائري." (4)

ذلكم هو الموقع الشعبي في عمليات التغيير الاجتماعي الكبرى، وتلك هي نظرة أصحاب التجارب الفكرية و الثورية بشأن الدور والمساهمة التي يمكن أن تقدمها الشعوب الواعية عند قيام الثورات، وحضور اللحظات الحاسمة ضرب المواعيد مع التاريخ. فماذا عن موقع الشعب الجزائري من هذه الصناعة التاريخية ؟ والدور والمساهمة التي قدمها في عملية التغيير الكبرى التي أحدثتها ثورة التحرير الوطنية ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م ؟

2. السياق التاريخي ونماذج من المساهمة الشعبية في الثورة.

إذا اعتبرنا واتفقنا على أن ثورة التحرير الجزائرية هي خلاصة صيرورة تاريخية، ومجهود مكثف للمقاومة والنضال السياسي الوطني؛ من يوم وقوع الاحتلال الفرنسي على الجزائر عام 1830م، وإلى غاية اندلاع الثورة في غرة نوفمبر 54م.. فانه يمكن لنا اعتبار أسلوب التعبير الشعبي من خلال "الانتفاضات" ، "الإضرابات" ، إلى جانب "المظاهرات" الشعبية... تلك التي تعبر عن مطالب سياسية جزئية محددة، آو مطالب وطنية عامة؛ كفكرة "**تقرير المصير**" أو "**الاستقلال**".. وغيرها. يمكن لنا التأكيد على أنه أسلوب للتعبير تعودت عليه الجماهير الوطنية؛ فهو ليس وليد ميلاد ثورة التحرير ومتطلباتها فحسب، بل هو أسلوب سبق ممارسته والتعبير من خلاله من قبل. من ذلك مثلا: مظاهرات 08 ماي 1945م التي جاءت في سياق مطالبة الجزائريين للفرنسيين بالوفاء بوعودهم " **بتقرير مصير**" الجزائريين، رافعين الأعلام الوطنية، وهاتفين بحياة الجزائر وزعيم الوطنية مصالي الحاج... الخ. لقاء وقفتهم معها في فترات محنتها خلال الحرب العالمية2 ، وما قدموه لها من خدمات مختلفة. و نجد نفس الأسلوب استخدمه الشعب الجزائري أواخر ماي 1952م عندما احتجت الجماهير الجزائرية بالإضراب العام والتظاهر، بسبب اعتقال الزعيم الوطني مصالي الحاج، ثم نفيه خارج البلاد إلى فرنسا.(5)

وقد وظف الأسلوب نفسه لاحقا خلال مراحل الثورة عدة مرات للتعبير عن مساندة الشعب للثورة وممثليها، وللدلالة على بعدها الشعبي المتجذر، ناهيك عن تثبيت توجهات وخيارات وطنية و ثورية معينة في خضم المجابهة الشاملة مع العدو الفرنسي. ومن ابرز تلك المحطات الشاهدة على " التفاعل الشعبي الخلاق" مع الفعل الثوري، وإظهار تضامنه والتفافه حول مشروعها التحريري؛ الانتفاضة الشعبية الكبرى لمنطقة الشمال القسنطيني فيما يعرف بهجومات 20 أوت 55 م؛ تلك التي عبرت فيها الجماهير الشعبية عن مستوى من التجاوب والتلاحم الشعبي، ما جعل كاتبا مثل " **إيف كوريار**" يعلق على الهجومات باندهاش في مؤلفه: " **زمن الفهود** " le temps des léopards » قائلا: " **انه الهجوم الأول لحرب الجزائر... دخلت حرب الجزائر الآن مرحلتها النشطة... من الآن فصاعدا سيكون هناك " قبل 20 أوت" و " ما بعد 20 أوت** " (6)

ويعلق المجاهد علي كافي على الدور الشعبي في هذه الهجومات . الانتفاضة الشعبية بالقول: " **لو لم يشارك الشعب . وطوال أيام الكفاح المسلح . لكانت الكارثة القاضية للثورة الجزائرية. فالجماهير الشعبية هي المحرك الأصيل والأساسي للثورة الدائمة.**" (7) مع أن رد فعل العدو الفرنسي ومليشياته الإجرامية من المستوطنين وأعوانهم على هذه الانتفاضة الشعبية كان قاسيا وهمجيا بقتل كل عربي يصادفونه، وتبني مبدأ "**المسؤولية الجماعية**" من قبل الحاكم العام "**جاك سوستيل**" وزبانيته في معاقبة الجزائريين، والانتقام لمقتل 71 أوروبيا؛ حيث فاق عدد ضحايا الانتقامات الفرنسية 12000 شهيدا من السكان العزل الأبرياء !(8) إلا أن ذلك لم يثن شعبنا عن التحرر من قبضة الكولون في المنطقة، ومنح الثورة نفسا جديدا لتتوسع ويزداد مجال انتشارها ، كما بعث برسائل ايجابية للمناطق الثورية الأخرى كالاوراس، والوسط والغرب؛ بأن الشعب ملتف حول قادة جبهة وجيش التحرير وأن الثورة بخير بالرغم من كل ما يلاقيه من قمع أعمى من المحتل الغاصب.

بعد هذه الانتفاضة الشعبية العارمة، تأتي انتفاضة الفئة المثقفة ممثلة في تلاميذ الثانويات وطلاب الجامعات؛ الذي أكدوا بدورهم تعلقهم والتزامهم الثابت بقضية شعبهم. فجاءت استجابتهم واسعة للإضراب الوطني الذي دعا إليه اتحادهم الطلابي" **الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين.**" في 19 ماي 1956م؛ بسبب المضايقات والاعتقالات التي يتعرض إليها قادتهم وباقي الطلبة، ناهيك عن معاناة شعبهم المتواصلة بسبب وقوفه إلى جانب الثورة ومشروعها الوطني التحرري. فأكدوا بهذا الإضراب أن لا قيمة للشهادات التي سوف يتحصلون عليها على جماجم وأشلاء شعبهم الذي يباد في الليل والنهار من قبل إدارة استعمارية فاشية. وأنه لا معنى لهذه الشهادات في وطن يتعرض للدمار والخراب الشامل؛ وعليه فقد اختاروا التخندق مع شعبهم في كفاحه الوطني، وغادروا مقاعد الدراسة بالجامعات ليلتحقوا بصفوف أبطال جيش التحرير في الجبال؛ حيث الجهاد وعز الوطن آو الظفر بشرف الشهادة وجنة الخلد.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله . وهو أحد الطلبة يومها بالقاهرة . معلقا على المكاسب التي حققها إضراب الطلبة لصالح الثورة، وضد أجهزة الدعاية الإعلامية والدبلوماسية الفرنسية: " **لقد كان الإضراب في حد ذاته ضربة قوية للإعلام والدبلوماسية الفرنسية في العالم، كما كان نصرا كبيرا للجبهة في صراعها من اجل افتكاك المبادرة ليس من فرنسا وحسب ولكن من منظمات مناوئة أو موازية كالحركة الوطنية التي أسسها مصالي الحاج وجماعة مكافحي الحرية التي أسسها الشيوعيون. وهكذا انضم طلاب الجزائر في المعاهد الفرنسية إلى إخوانهم الثوار . المجاهدين..** " (9)

ثم تلتها ملحمة شعبية أخرى مماثلة لسابقاتها؛ تجسدت في الاستجابة الشعبية الرائعة للإضراب الشهير الذي دعت إليه قيادة الجبهة، والمعروف تاريخيا بإضراب الثمانية أيام. ذلك الذي نفذته الجماهير الوطنية باستجابة كبيرة بكبريات المدن على رأسها العاصمة في الفترة الممتدة بين 28 جانفي حتى 03 فيفري 1957م. مما جاء في نداء الجبهة بشأن الإضراب: " **أيها الشعب الجزائري المجاهد، أيها المواطنون من تجار وعمال، وموظفين وفلاحين ومحترفين، إنكم ستستعدون لأسبوع الإضراب العظيم، أسبوع الكفاح السلمي للآمة التي فاتها شرف الكفاح المسلح. فامضوا مصممين واصبروا للمحنة والبطش وأنواع العذاب التي يسلطها عليكم العدو، فالله معكم، وجبهة التحرير بجيشها العنيد من ورائكم... إلى الحرية إلى الاستقلال.**" (10)

وكان أن أكدت الجماهير الشعبية للعدو مرة أخرى بأن الشعب الجزائري مع خيار ثورته المسلحة ولا يقبل بأنصاف الحلول لقضيته الوطنية. حيث شل العاصمة ومدن أخرى بغرب وشرق الجزائري، مما أصاب أجهزة العدو العسكرية والأمنية بالجنون والهذيان الذي دفعهم إلى كسر أبواب المحلات التجارية للجزائريين، وإجبار أصحابها على فتحها بقوة السلاح والانتقام من المضربين وعموم الشعب . كالعادة . بشتى ألوان القمع والاعتداءات دون تمييز بين المذنب والبرئ من النساء والأطفال والكبار.. فكلهم "فلاقة" يدعمون المنظمة الإرهابية " **جبهة التحرير الوطني**" وعصابتها المتمردة **!!**

2 . <u>عودة الجنرال ديغول إلى الحكم... ومعالم سياسته</u>

مع كل الأساليب والوسائل الجهنمية العسكرية، والسياسية المراوغة، وصنوف الحرب النفسية والإعلامية والدبلوماسية التي سخرتها إدارة العدو ووظفتها لضرب الثورة وخنق صوتها بالداخل والخارج؛ إلا أن الحضور الشعبي في كل موعد حاسم كان بمثابة عصا موسى التي أبطلت سحر المستعمرين ! بل نقلت الضغط والتأزم هناك حيث الضفة أو الجبهة المقابلة بفرنسا، حيث غرقت في أزمات اقتصادية، وانقسامات اجتماعية، وأزمات سياسية ودستورية، وحرب تراشق إعلامي بين مستوطني الجزائر وممثليهم من جهة وأعلام بلدهم الأصلي الحكومي منه خاصة.. أدى كل ذلك إلى تزايد خيوط التآمر بين الطرفين؛ بتنفيذ من القادة العسكريين

وضباطهم في الجزائر بدعم واضح من بعض الضباط المتقاعدين... انتهت فصول تلك الأزمة إلى سقوط حكومات خمس، وطي أخر صفحة في عمر الجمهورية الفرنسية الرابعة؛ على أيد العسكريين على اثر تمرد 13 ماي 1958م بقيادة الجنرال "ماسي" ومباركة الجنرال "صالان" القائد الأعلى للقوات بالجزائر. وهددوا باحتلال فرنسا ، وقلب نظام الحكم فيها أن لم تستجب السلطة لمطالبهم دون شروط؛ فمطالبة الرئيس الفرنسي "**رينيه كوتي**" بتكوين " حكومة إنقاذ عام" ثم دعوة الجنرال ديغول إلى تسلم زمام الحكم في فرنسا. وفي 27 من نفس الشهر أعلن ديغول عبر الإذاعة أنه أطلق: "**العملية المنتظمة الضرورية لإقامة حكومة جمهورية قادرة على تأمين استقلال ووحدة البلاد.**" (11)

فعلا خضعت السلطة في باريس لمطالب الانقلابيين، وقدم رئيس الحكومة "**بفلمان**" استقالته للرئيس الفرنسي، ليوجه هذا الأخير رسالة إلى البرلمان الفرنسي بجمعيتيه في 28 ماي لتشكيل حكومة بقيادة ديغول. وفي الأول من جوان نصب "منقذ فرنسا" الجديد على رأس حكومة جديدة، وفي 03منه حصل على الصلاحيات المطلقة لمدة ستة أشهر. بذلك بدأت سياسة الجنرال ديغول لإنقاذ فرنسة من الورطة التي أوقعتها فيها الثورة الجزائرية وشعبها بعد أربع سنوات من الكفاح المسلح من أجل الانفصال والاستقلال عن فرنسا. فما هو جوهر سياسة ديغول الإصلاحية سياسيا، ومعالم إستراتيجيته العسكرية للقضاء على "عصابة المتمردين" . بحسب تعبيره . واسترجاع السلم بالجزائر؟ وما هو موقف الشعب الجزائري وقادة الثورة من كل ذلك ؟

شرع الجنرال ديغول في إعداد خططته السياسية والعسكرية، فقام بتغيير الدستور الفرنسي في استفتاء 28 سبتمبر 1958م؛ لينهي عصر الجمهورية الرابعة وبدأ عصر الجمهورية الفرنسية الخامسة . التي ما تزال تحكم فرنسا حتى يوم الناس هذا. لينصب بعدها رئيسا للجمهورية يوم الفاتح من جانفي 1959م.. وبذلك وتولى المنصب الأول في الدولة الفرنسية، وجمع كل الصلاحيات الذي تخوله تطبيق سياسته بكل أريحية. وقد تركزت معالم سياسته في المحاور والإجراءات التالية:

أ . الإعلان عن منح الجزائريين المسلمين الحقوق السياسية، والكشف عن مخطط شامل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لفائدة الجزائريين أثناء زيارته الأولى إلى قسنطينة يوم 03 أكتوبر 58م

ب . دعوة جبهة التحرير ومن خلالها الثوار الجزائريين يوم 23 أكتوبر 1959 م إلى إلقاء السلاح والاستسلام؛ من خلال ما سماه " سلم الشجعان"، ليقدم لهم ضمانات للعفو والوعد بإعادة إدماجهم في الحياة الاجتماعية... ضمن الإطار الفرنسي طبعا !

ج . الاعتراف بحق تقرير مصير الجزائريين ضمن الخيارات الثلاث المطروحة في الساحة؛ وهي إما الانفصال والاستقلال الكلي الذي يفضي . حسبه . إلى فوضى عارمة، وعمليات ذبح، ودكتاتورية شيوعية.. وهو خيار عدمي لا يحبذه. أو خيار الفرنسة والإدماج التام وفق شعار المستوطنين ومعظم قادة الجيش الفرنسي بالجزائر

المدافعين عن "الجزائر فرنسية" ؛ وهو خيار متطرف وغير واقعي عبر ديغول عن عدم الإيمان به أكثر من مرة. بينما يميل إلى خيار ثالث أو أطروحة " **حكم الجزائريين بالجزائريين**" بمساعدة فرنسية ووحدة معها في ميادين: الاقتصاد، التعليم، الدفاع، والعلاقات الخارجية. (12)

د . تعيين الجنرال موريس شال قائدا عاما للقوات الفرنسية بالجزائر، وتزويده بتفويض عسكري مطلق، مع دعم عسكري ومادي كامل... لانجاز مهمة واحدة ووحيدة هي القضاء على "التمرد" الذي يقوده "الإرهابيون" و " الخارجون على القانون" ؛ وبالتالي إلحاق الهزيمة الماحقة بجبهة التحرير الوطني، واستتباب الأمن داخل المستعمرة الفرنسية " المفيدة".

تلكم هي المعالم الكبرى للسياسة الديغولية التي شرع في تنفيذها في الجزائر، تلبية لرغبات عصابة المستوطنين، والمتشددين من القادة الضباط العسكريين. تتملكه الثقة وتغمره النشوة بتحقيق الانتصار السريع والكبير الذي يعزز رصيده التاريخي والسياسي؛ كمنقذ لفرنسا، وزعيم أوحد للفرنسيين ! فماذا له الشعب الجزائري لإبطال مفعول مخططاته الحالمة ؟

<u>مظاهرات 11 ديسمبر 1960م و 17 أكتوبر 1961م... نموذجا</u>

في خطاب ألقاه ديغول يوم 04 نوفمبر 1960م تحث عن: " **الجمهورية الجزائرية التي لا توجد ألان، ولكنها ستنشأ يوما ما.**" هذا الخطاب، ومثله من التصريحات التي كان يطلقها ديغول في اتجاه إغراء قادة الجبهة بقبول التسوية التي يطرحها بحل وسط؛ بين الطرح الانفصالي للجزائريين، والطرح الإدماجي للمستوطنين.. قلت في خضم هذه التصريحات الاستفزازية . في نظر المستوطنين . قرر هؤلاء الأخيرين شن حملة تستهدف رفض زيارة ديغول إلى الجزائر حسب ما هو مبرمج؛ باعتبار ديغول يهيئ الظروف الملائمة لتسليم حكم الجزائر للحكومة المؤقتة الجزائرية. وكانوا يتحدثون بقسوة بالغة عن ديغول، من بينها قول بعضهم: " كيف يجرؤ هذا الخائن وهذا الوغد على المجيء ليتحدانا في بيتنا... سيرى أي استقبال سننظمه له." (13)

ولهذا قررت جبهة الجزائر الفرنسية إعلان إضراب عام لمدة أربعة وعشرين ساعة ل بالتزامن مع وصول ديغول إلى الغرب الجزائري؛ حيث بداية زيارته التفقدية للمدن الجزائرية. ووزعت مناشير في مدينة الجزائر بهذا الخصوص. وفعلا وابتداء من الساعات الأولى من يوم 09 ديسمبر 1960م تاريخ بداية الزيارة ونزول ديغول بمطار وهران رفقة وزيره للشؤون الجزائرية السيد " **لويس جوكس**"، بدأ إضراب عام وبدا المتظاهرون المستوطنون يتجمعون في مركز مدينة الجزائر؛ لتندلع مشادات وأعمال عنف أدت إلى سقوط قتلى وجرحي بين المستوطنين ورجال الأمن الفرنسي. وشهدت مدينة عين تموشنت صدامات مماثلة. وظل الجو العام متوترا ينذر بحدوث مواجهات في كل مدينة تشملها زيارة ديغول، حيث استمر الحال كذلك محتقنا بين الطرفين حتى يوم 11 ديسمبر 1960م؛ حيث تشهد مدينة الجزائر العاصمة خروج المئات بل الآلاف من المتظاهرين الجزائريين في تجمعات مضادة، للدفاع عن إخوانهم الجزائريين الثلاثة الذين داهمتهم عصابة المستوطنين المتظاهرين، وانهالوا

عليهم بالضرب والاعتداء؛ ليفروا بعدها تاركين المكان لجنود الاحتلال وقواته الأمنية التي أطلقت نيرانها على الجزائريين. فكانت هذه الحادثة بداية للمظاهرات العارمة التي عمت أحياء العاصمة؛ حاملة الأعلام الوطنية، وهاتفة بحياة الجزائر المستقلة، وبجبهة التحرير والحكومة المؤقتة.(14) في مشهد فاجأ الجميع: المستوطنين، وديغول ومرافقيه من رجال الإعلام الفرنسيين والعالميين الذين جاؤوا لتغطية الزيارة، ناهيك عن رجال الأمن والاستخبارات العسكرية التي بدورها لم تكن تملك من المعلومات عن حدوث مظاهرات للمسلمين الجزائريين. بل إن المظاهرات فاجأت الجبهة وقيادة الثورة نفسها: بحجمها ، توقيتها، وتأثيراتها..!

وعلى الرغم من أن العدو قد دفع بقوات أمنه لقمع الجزائريين وسقوط ضحايا كثر في الجانب الجزائريين، حددتهم الجهات الرسمية الفرنسية ب 90 قتيلا في مدينة الجزائر، و69 قتيلا بوهران، إلى جانب أكثر من 1500 جريح.(15) ناهيك عن حملة الاعتقالات التي طالت أكثر من 4000 شخصا. إلا أن أمر التعامل مع مظاهرات المستوطنين . التي بدأت في شوارع العاصمة وبعض المدن الأخرى منذ يوم 11 نوفمبر 1960م؛ تزامنا مع إحياء ذكرى الهدنة التي أنهت الحرب. ع1 لمصلحة الحلفاء . لم يكن بنفس القسوة والقمع مع هؤلاء الذين كانت مظاهراتهم عنيفة، وأظهروا تحديهم السافر لإرادة السلطة الشرعية ومؤسساتهم في بلادهم !

وقد حظيت هذه المظاهرات بتغطية إعلامية واسعة من قبل الصحافة الفرنسية والعالمية، التي جاءت أساسا لتغطية زيارة ديغول إلى الجزائر . والتي استمرت متجاهلة ما حدث . وقد صرح ديغول من بجاية قائلا: " **إننا نقترب من الهدف (الجزائر الجديدة)، حيث أن الصيحات التي تطلقونها كافية للدلالة على هذا الأمر**."(16) وجاءت ردود الفعل الأخرى متباينة؛ منها ما كتبته مجلة "**نيوزويك الأمريكية**" في تقرير نشرته يوم 26 ديسمبر، بأن المتظاهرين حملوا الأعلام الوطنية الجزائرية، وكانوا يطالبون بتسليم فرحات عباس السلطة في الجزائر، وقد قال لها احد المسلمين المتظاهرين: "**هذه هي أصواتنا وكلنا مع جبهة التحرير الجزائرية المسلمة**."(17)

في المقابل فقد جاء رد الحكومة المؤقتة الجزائرية على لسان رئيسها فرحات عباس الذي وجه خطابا إلى الشعب الجزائري يوم 16 ديسمبر 1960 ؛ مما جاء فيه: " ... **المعركة التي خضتموها قد أخذت أبعادا كبيرة، إن العالم بأسره قد سجلها كانتصار مدوي لكفاحنا التحريري، إن هذه المعركة يجب أن تتوقف، إنها ليست المعركة الأخيرة، لان تحديات أخرى ما زالت في انتظاركم.**" (18)

نفس الأمر كان مع جاليتنا بالمهجر التي من رحمها ولد النشاط السياسي الوطني منذ زمن بعيد، خلال فترة العشرينات من خلال النجم وحزب الشعب، وكذلك الحزب الشيوعي الجزائري. وقد ساهمت في إدخال الأساليب السياسية النضالية العصرية، تأطير الحركة العمالية لصالح المشروع الوطني التحريري والثوري. ومع اندلاع الثورة التحريرية كانت جماهير المهجر في الموعد للمساهمة في العمل

الثوري عبر " **فيدرالية جبهة التحرير في فرنسا**" وباقي البلاد الأوروبية. وكان ابرز تجلى لمشاركة هذه الفئة الوطنية في الثورة هو تنشيطها للعمليات العسكرية الفدائية للجبهة؛ خاصة بعد معركة الجزائر 1957 م واعتقال منشطها العربي بن مهيدي . أحد أعضاء "**لجنة التنسيق والتنفيذ**" وقادة الثورة في نفس السنة ثم إعدامه من قبل السفاح الجنرال "**بيجار**" في شهر مارس 57م. ثم مباشرة الجنرال "**ماسي**" عمليات متابعة واعتقالات في صفوف المناضلين وعموم الشعب. مما دفع قيادة الجبهة إلى اتخاذ قرار يقضي بنقل العمليات الفدائية وتنشيطها في المدن الفرنسية ذاتها.

لكن الحضور الأقوى لهذه الفئة من الشعب المناضلة في سبيل قضيتها العادلة، وإظهار التعلق العاطفي بوطنها الأم " الجزائر" وبمصير شعبها؛ كان في مظاهرات 17 أكتوبر 1961م. تلك المظاهرات التي اندلعت بسبب الممارسات العنصرية تجاه الجالية الجزائرية المسلمة بفرنسا؛ بعد أن عمدت السلطات الأمنية الفرنسية إلى فرض حظر التجوال على الجزائريين في المدن الفرنسية ابتداء من الساعة السابعة مساء !! وكان رد فيدرالية الجبهة بالمهجر مباشرا؛ حيث دعت جميع الجزائريين إلى إبطال هذا القرار عبر دعوتهم إلى الخروج والتجول. وفعلا كانت الجماهير الجزائرية في الموعد بخروجها يوم 17 أكتوبر 1961م بكثافة قدرت بحوالي 60 ألف جزائري، متظاهرين بباريس منددين بقرار منع التجوال والسلوك العنصري تجاههم. وقد رفعوا في هذه المظاهرات . كسابقاتها . شعارات وطنية تنادي بحياة الجبهة والحكومة المؤقتة الجزائرية. (19)

وقد كان رد فعل المستعمرين وقواتهم الأمنية على المتظاهرين . كسابق عهدهم . أشد عنف وقسوة؛ حيث اعتقل أكثر من 15 ألف جزائري، وسقط العشرات من الأطفال والنساء قتلى وجرحى كما القي المئات منهم في نهر السين.(20) بذلك انكشف حجم الزيف والادعاء الكاذب للفرنسيين أمام الرأي العام الدولي، باحترامهم الحريات ومبادئ حقوق الإنسان من خلال هذه الجريمة الفاجعة. لكنها لم تثن من عزم الجزائريين في المضي في تقديم قوافل الشهداء حتى تحرير الوطن وإجبار المستعمر الفرنسي على الاعتراف باستقلالهم مهما كلف ذلك من ثمن.

ذلكم قليل من كثير مما كتب وعلق حول هذه المظاهرات الشعبية الفاصلة في سياسة ديغول وحياة الثورة معا، فماذا عن الدلالات المستخلصة من كل ما سبق ذكره ؟

أهم الدلالات المستخلصة

إن من أهم المعاني والدلالات التي يمكن الوقوف عليها من خلال هذه المداخلة المتواضعة ما يلي:

1. إن الحركات الشعبية كل الحركات الشعبية، هي المؤهل الأول والأخير لإحداث التغيير المنشود في أي مجتمع. وفي تاريخ مقاومتنا وثورتنا الوطنية أثبتت الجماهير مدى قدرتها على إحداث التحولات الكبرى، وتغيير وجه الواقع والتاريخ في اللحظات الحاسمة. وكانت قدرتها وطاقتها تلك كفيلة بهدم المشروع الكولونيالي كما بناء المشروع الوطني وإحلاله بدل الأول. عكس ما يذهب اتليه البعض بكون الحضور

الشعبي المكثف في صيرورة الثورة؛ هو الذي أطال من مدتها ومنحها البعد الديني الذي افقدها حداثتها، كما نظر إلى وكأنه المهدي المنتظر !(21)

2. إن مظاهرات الجزائريين السلمية، في 08 ماي 1945 وأحداثها تحديدا هي التي كشفت عورة المستعمر وزيف وعوده، وحاله الضعف والضياع التي كان يتخبط فيها. كما أنها منحت الحركة الوطنية جرعة جديدة من الثقة، وعززت من حظوظ الاتجاه الاستقلالي في العودة إلى الاعتماد على الجماهير الشعبية لإحداث التغيير المنشود، بدل اللهث وراء المشاريع الإصلاحية الفارغة والعقيمة. فكان ذلك بمثابة رسالة بليغة واستباقا مدهشا لقيام ثورة نوفمبر 54م الفاصلة.

3. مثلت الهبة الشعبية في الفاتح نوفمبر 54م، وبعده في 20 أوت 1955م؛ عنوانا بارزا لترجمة الإرادة الشعبية في التحرر، والاستعداد للتضحية بكل ما تبقى من غال ونفيس في سبيل حرية واستقلال الوطن. فكان الاحتضان الشعبي للثورة والالتفاف حولها درسا حيا لكل المشككين والمترديين في قدرات شعبنا على صنع المعجزة وضرب الموعد مع التاريخ. ورسالة واضحة للعدو على أن الثورة هي ثورة كل الشعب الجزائري لا قلة من المتمردين كما ادعى.

4. لقد جاء إضرابي 19 ماي 56م للطلاب والثمانية أيام للعمال والتجار في أواخر جانفي مطلع فيفري 1957م؛ تعبيرا صادقا عن مستوى الوعي الثوري للطبقة الوسطي والنخبة المثقفة، التي ربطت مصيرها بمصير شعبها وثورته المباركة. فجاءت الاستجابة لنداء جبهة التحرير في شل الحياة في المدن والأرياف عن طريق الإضرابات تأكيدا على بلوغ الثورة مرحلة الشمولية والنضج الشعبي، ورسالة إلى الجهات الفرنسية بأن الثورة كما هي ثورة الفلاح في الأرياف، والمجاهدين في الجبال؛ هي كذلك ثورة التجار والعمال في المتاجر والمصانع، وثورة الطلاب في المدارس والجامعات..!

5. إن مظاهرات 11 ديسمبر 1960م و17 أكتوبر 1961م، وما تبعهما ، جاءت في مرحلة صعبة من عمر الثورة؛ حيث جيش التحرير محاصر عن طريق مخططات الجنرال شال الجهنمية، والقيادة الثورية السياسية غارقة في صراعاتها بالخارج، وديغول عازم على المضي في إصلاحاته ومناوراته السياسية لاحتواء الثورة وعزل الشعب عنها بالإغراء تارة وبالقمع أخرى... في هذه اللحظة الحرجة جاء صوت الشعب الجزائري مدويا وخرجت الجماهير لترد على ديغول المتعجرف برفض كل مشاريعه الاستسلامية، والالتفاف حول قيادة الثورة ممثلة في الحكومة المؤقتة الجزائرية بقيادة فرحات عباس. فكان ذلك بمثابة صوت السماء المنقذ للثورة من كيد الأعداء وعجز الإخوة الأعداء. بذلك اقتنع الجميع ديغول والحكومة المؤقتة بضرورة الإسراع في الذهاب إلى الحل النهائي للمشكلة الجزائرية ممثلا في الدخول في المفاوضات الجدية بين الطرفين على قاعدة حق الجزائريين في تقرير المصير، ووحدة البلاد والشعب.. ولا عجب فإرادة الشعوب من إرادة الله.

ا لخاتمة:

نخلص في ختام هذه المحاولة العلمية إلى التأكيد على أن مساهمة الشعب وحضوره القوي إلى جانب الثورة؛ كان ذلك بمثابة التحول الحاسم في مسيرة الثورة باتجاه اقتناع ديغول بجبهة التحرير الوطني وقيادة الثورة؛ ممثلة في الحكومة المؤقتة؛ كممثلين شرعيين وحيدين للثورة الجزائرية. واطلاع الرأي العالمي على حقيقة ذلك من خلال هذه " **الانتفاضات**" وحركة "**الإضرابات**" الوطنية؛ ناهيك عن "**المظاهرات**" التي حملت الأعلام الوطنية، كما نادت بشعارات مؤيدة لجبهة التحرير الوطني وحكومتها المؤقتة.. مؤيدة للثورة. ومن جهة ثانية فقد أصبحت جبهة التحرير رقما صعبا في معركة التفاوض من خلال إثبات قدرة خارقة في توظيف واستعمال الورقة الشعبية كلما تتطلب الأمر ذلك. بذلك انطلقت المفاوضات الجدية بين الطرفين والتي أثمرت . بالرغم من صعوبتها وتعقدها . عن اتفاق وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962م؛ الذي عبد الطريق نحو استفتاء تقرير المصير على استقلال الجزائر؛ وقد تم ذلك وأعلن فعلا في 05 جويلية 1962 م.

هوامش البحث:

1 . د..رابح بلعيد، **جريدة رسالة الأطلس**، العدد 146، الحلقة 53 من 14 إلى 20 جويلية 1997

2 . فرانز فانون، **معذبو الأرض**، تقديم ك. شولي وترجمة السيدة منور،موفم للنشر، الجزائر 1990 ، ص3736

3 . مالك بن نبي، **القضايا الكبرى**، ترجمة عمر مسقاوي، ط1 ، دار الفكر دمشق، سوريا 2000 ، ص 122

4 . إبراهيم لونيسي، **التجربة الديمقراطية في الوطن العربي- الجزائر نموذجا 1952-1992**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بقسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2003-2004م، ص 337

5 . محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، ترجمة نجيب عياد وصالح المثلوثي، موفم للنشر الجزائر1994 ، ص170

6. علي كافي: **مذكرات الرئيس علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946 . 1962** ، دار القصبة الجزائر 1999 ،ص 86

7. نفسه، ص 87

8 . أحمد طالب الإبراهيمي، **مذكرات جزائري، أحلام ومحن 1932 . 1965** ، ج 1 ، دار القصبة للنشر الجزائر 2006 ، ص 94 . وانظر كذلك: محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، مرجع سابق، ص148

9. د. ابوالقاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج10 ، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 2007 ، ص 302. للتوسع في موضوع حركة الطلاب المسلمين ونشاطهم الوطني، خاصة بقيادة " **الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين**" " وإضراب 19 ماي 1956م. أنظر: UGEMA"

Guy Pervillé**, Les étudiants algériens de L'université Française 1880-1962**, Casbah éditions. Alger, 1997. pp 122-144

10. جريدة " **المجاهد**" عدد 1 فبفري 1958 ص 9

11. رضا مالك، **الجزائر في إيفيان، تاريخ المفاوضات السرية 1956-1962** ، ترجمة فارس غضوب، ط1 ، دار الفارابي بيروت . لبنان 2003 ، ص 359 . انظر تفصيلا عن معالم إستراتيجية ديغول وسياساته في: رمضان بورغدة، **الجنرال ديغول والثورة الجزائرية**، رسالة دكتوراه . غير منشورة . نوقشت بقسم التاريخ جامعة قسنطينة عام 2007، صص 240–292

12. الجنرال ديغول، **مذكرات الأمل . التجديد 1958-1962**م، ترجمة سموحي فوق العادة، ط1، منشورات عويدات بيروت 1971، ص 86 . 87

1 3 – Pierre-Albert Lambert : **un voyage mouvementé**, in Yves : Courrieres, **La guerre d'Algérie, tome 07, éditions librairie Jules Tallandier**, Paris 1976, p 2651 .

14 . جريدة "**المجاهد**"، عدد جانفي 1961م، ص4

15– Revue du **presse du matin**, 12- 12-1960

16 – **Le Figaro**, N° = 5062, du lundi 12- 12 - 1960

17 – **Newsweek**, 26 décembre 1960, p . 24

18 - Revue du presse du matin : **le recteur de l'académie d'Alger a Mr le ministre des affaires algériennes, objet** : université d'Alger , compte-rendu des évènements (période du 08 au 17-12-1960, Alger , 28 -12 -1960.

19. جريدة "**المجاهد**"، عدد13 نوفمبر 1961، ص3

20. للمزيد من التفاصيل حول هذه المظاهرات وغيرها. أنظر: محمد لحسن زغيدي، مؤتمر **الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962** ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989 ، صص 216-220

21. أنظر محمد حربي، **مرجع سابق**، ص174